الشيخ يوسف الدجوي.. الفقيه البحاثة الداعية

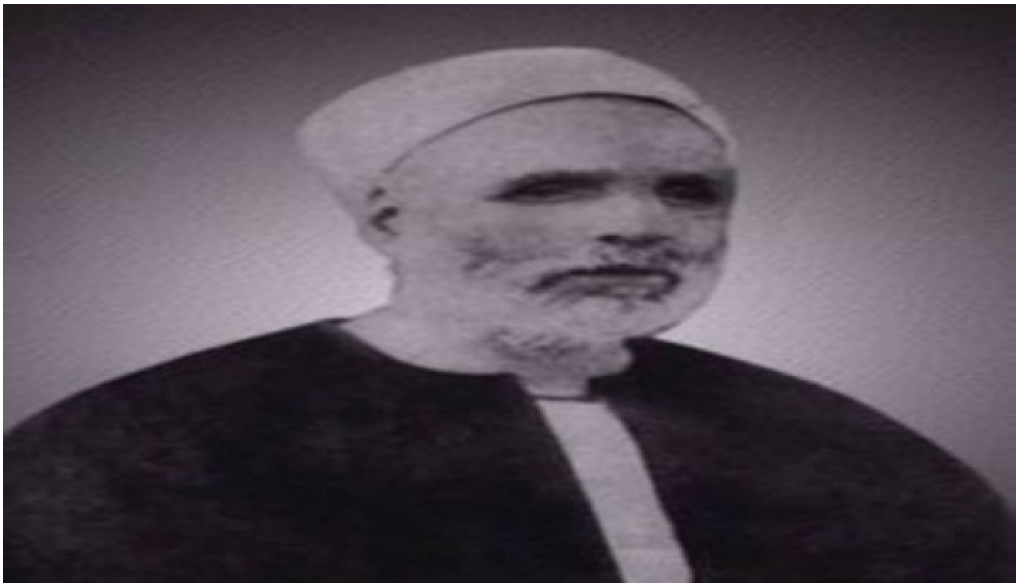

الخميس 16 فبراير 2012 07:03 م

كتب: بقلم: السيد شعيب

لم يخل عصرٌ من العصور الإسلامية من العلماء والمصلحين الذين يحيون ما أمات الناس من سنن، وما أفسدوا من شرائع، وما عطلوا من أحكام، ويرجعون بالناس إلى الدين في سهولته وهدايته كما كان في الصدر الأول، ويجمعون كلمة المسلمين على ما أجمعوا عليه قبل التفرق والاختلاف.

ويعد الشيخ يوسف الدجوي أحد هؤلاء العلماء والمصلحين الذين جدووا في المسلمين أمور الدين والدنيا، وأوقفوا حياتهم على خدمة الإسلام والمسلمين.

مولده ونشأته

هو الشيخ يوسف بن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوي ينتهي نسبه إلى حبيب بن سعد إحدى قبائل العرب الحجازية.

وُلد الشيخ الدجوي في قرية دجوة بمحافظة القليوبية عام 1870م، ونشأ بها وحفظ القرآن الكريم.

صيب في طفولته بمرض الجدري حتى كُفَّ بصره، ولم يمنعه ذلك من استكمال تعليمه وتحقيق طموحه.

نشأ رحمه الله في بيت علمٍ وفضلٍ ووجاهةٍ، إذْ كان والده رئيس قريته، ومنزله محط الغادين والرائحين، ومثابة مَن يفد على القرية من العلماء والأعيان، وله مكتبة عامرة بكتب الفقه والأدب والتاريخ، وقد دفع بولده الصغير إلى مَن يُحفِّظه كتابَ الله فبدت دلائل النبوغ على الطفل الناشئ إذْ تمتع بذاكرةٍ حافظة تستوعب ما يُراد استيعابه دون جهد.

وكان يسمع الحوار العلمي في منزل والده فيعيه على حداثة سنة فاتجهت الرغبة إلى إلحاقه بالأزهر الشريف بعد أن درس في القرية مبادئ الفقه والنحو والسيرة النبوية المطهرة.

لقَّى العلم على كبار علماء عصره كالشيخ هارون عبد الرازق البنجاوي والشيخ سليم البشري شيخ الأزهر وغيرهما.

وما كاد ينتظم في دروسه حتى برز بين أقرانه؛ لأن ما درسه من مبادئ العلوم كان سُلَّمًا إلى ارتقاءِ ذهنه، وقد أُوتي جلدًا على الدرس فكان لا ينقطع عن حلقات الدروس بالأزهر، فهو دائم التردد على مجالس الأساتذة حتى أصبح موضع الثقة بين زملائه

يفزعون إليه حين يحتاجون إلى استعادة ما قال الاستاذ في درسه، ويذهبون في المساء إلى منزله ليتذاكروا معًا مسائل العلم، ولم يمر زمن طويل حتى أخذ يُدِّرس لإخوانه كتب الأزهر قبل أن ينال الدرجة العالمية فيجتمع حوله الطلاب واثقين بعلمه.

نال الشيخ الدجوي شهادة العالمية من الدرجة الأولى الممتازة سنة 1316هـ ثم عمل بالتدريس بالأزهر، وكان لعلمه العميق وفهمه الناضج وأسلوبه البليغ أثر عميق في اجتذاب الطلاب إلى الدراسة والالتفاف حوله، وتخرَّج على يديه كثيرٌ من العلماء وكبار الأساتذة ورؤساء المحاكم الشرعية والمحامين.

وكان امتحانه النهائي يومًا مشهودًا، إذ اجتمع له الأفذاذ من علماء الأزهر مقدرين مكانته وفي مقدمتهم شيخ الأزهر العلامة سليم البشري، فأطالوا نقاش الطالب ليكشفوا عن معدنه النفيس ومنحوه أعلى الدرجات، وسارع بعضهم إلى زيارة منزله مهنئين واثقين بما سيجرى عليه من خيرٍ للعلم، ورأت المشيخة أن تسند إليه الكتب العويصة على غير عادتها مع زملائه فالتفَّ حوله الطلاب، وشهدوا بإحاطته الشاملة وبصره النافذ في الدقائق المشتبهة.

صفاته

كان الشيخ الدجوي آيةً في الذكاء وسرعةَ الخاطر وجودةَ البيان وقوة الذاكرة وسعة العلم، يحضر حلقات دروسه في الأزهر الشريف مئات من العلماء، وطلبة العلوم وتتوارد إليه استفاءات من شتى الاقطار والجهات.

كما كان سمحًا كريمًا يعطف على الغرباء ويهشُّ لتلامذته وطلابه.

جهوده العلمية

تنوعت دروس الشيخ الدجوي فلم تقتصر على فن واحد؛ لذا أراد الشيخ أن يتسع بعلمه إلى أرحب مجال فدعا إلى دروسٍ في عامةِ التفسير يلقيها بالرواق العباسي تشبهًا بالإمام محمد عبده رحمه الله فاتسعت حلقة درسه وحضر الطلاب بأوراقهم ليسجلوا ما يفتح الله به على الشيخ.

على أن جهد الشيخ يوسف لم يقتصر على الطلاب إذ رأى أن تكون الصحافة بعض ميادينه العلمية، وكانت شبهات الضالين من الكُتَّاب تتردد في بعض المجلات متسترة وراء الحرية العقلية ومتجهةً إلى رمي العلماء بالجمود والرجعية فكان الشيخ الدجوي يتعقب هذه الشبهات ليرد عليها.

برع الشيخ الدجوي في الرد على الدهريين والماديين الغربيين باستعمال منطقهم وأقيستهم العقلية، وألقى محاضرات عدة في الرد على بعضهم، فقد دعته جمعية الشبان المسلمين للرد على أصحاب النظريات الإلحادية من الغربيين، فألقى محاضرةً بعنوان "علم الطبيعة وصلته بالإلحاد" فابتدأ الشيخ الدجوي بقول العلامة الإنجليزي "سبنسر": "ليس الغرض من تعلُّم الطبيعة معرفة الظواهر وإنما الغرض هو الوصول إلى الأسباب الباهرة التي نُفسِّر بها هذه الظواهر مع صعوبة هذا الوصول واستحالته في كثيرٍ من المسائل"، والإلحاد لا يجتمع مع التعمق في الدراسات الكونية؛ لأن نسقها المحكم الدقيق يدل على وجود إلهٍ مدبرٍ يُدير الكون.

وتابع الشيخ مستشهدًا بأقوال العلماء بأنَّ ما حصل من الاكتشافات العلمية يدل على أن الكثير منها لا يزال طي الخفاء؛ لأن العلماء يكشفون اليوم ما كان مجهولاً بالأمس، ولو سلَّمنا جدلاً بأنهم عرفوا كل القواميس الطبيعية فإن ما عرفوه ينحصر في مشاهد الأرض وحدها، فلهم أن يقولوا إنا عرفنا عناصرها وتركيبها ولكنهم لا يستطيعون أن يقولوا إنهم عرفوا ما اشتملت عليه العوالم الفسيحة من أسرار، فليست أرضنا إلا ذرة صغيرة بإزائها ويكفي أن تعلم أن الأرض جزء من ألف ألف وثلاثمائة جزء من الشمس، وليست الشمس إلا شيئًا صغيرًا بجانب غيرها.

ونحن لا نجد الدليل على المجهول وعدم الدليل لا يدل على عدم المدلول، أما كنا نجهل الميكروبات والكهرباء آلاف السنين ثم كشف العلم عنهما؟ أيكون جهل الأقدمين بهما دليلاً على عدم الوجود؟ وإذا كان العلم ينقض في غده ما أثبته في أمسه فكيف يكون حجةً قاهرةً على ما جاء به القرآن من أسرار؟ وكيف ينجح من يعلم القليل فينكر وجود خالق السموات والأرض؟

ذا كانت الافتراضات غالبةً في تعليل العلماء فكيف يكون الغرض الاحتمالي يقينًا لا جدلَ فيه؟

وبعد إفاضة مشبعة تملأ عدة صفحات ينقل المحاضر قول العلامة "كاميل فلامريون" إنه من الضلال أن نصدق كل ما يقال، ويساويه في البطلان ألا نعتقد شيئًا أصلاً، ويمضي في تفسير هذا القول ليؤكد قصور الملحدين وأخذهم بالقشور دون اللباب.

وهكذا استطاع الشيخ الدجوي أن يخاطب الجمهور بالأدلة والبراهين العقلية مؤيدةً بأقوال كبار العلماء من أساتذة أوروبا، وهو اتجاه محمود لأنه يضيف إلى الأدلة النقلية أدلة أخرى عقلية تشق طريقها إلى البعض ممن لا يعترفون بالأدلة النقلية من القرآن والسنة.

وفي محاضرةٍ أخرى في جمعية الشبان المسلمين حول إثبات الروح استجابةً لاقتراح بعض المشككين سلك الشيخ الدجوي مسلكه السابق في الاستعانة بالأدلة المنطقية والبراهين العقلية الدامغة.

ولقد انتشر صدى هذه المحاضرات العلمية للشيخ الدجوي في الأوساط العلمية المختلفة وتلقفها رجال التربية وعلماء النفس والاجتماع، وأخذ طلاب البعثات الأوربية يرجعون إليه حين يجدون بعض الشبهات فيما يدرؤون من مسائل العلم الحديث.

خاض الشيخ الدجوي كثيرًا من المعارك الفكرية مع بعض علماء عصره حول بعض المسائل الشرعية، وأبرزهم العلامة الشيخ رشيد رضا والشيخ محمد بخيت المطيعي، ومع ذلك لم يكن الشيخ الدجوي من ذوي التعصب لرأيه بل كان يُقدِّم لفتاويه بأنها محض اجتهاد وأن رأيه ليس الأوحد الذي لا محيدَ عنه، وقد أُثر عنه قوله إنه حين يُسأل عن حكمٍ فقهي يذكر ما يُرجحه من آراء العلماء في هذا الحكم، وليس معنى ذلك أنه لا خلافَ فيه بل معناه أن المختار هو ما يتجه إليه، وقلما نجد مسألةً مما يُسأل عنه لا خلافَ فيها.

كما انضمَّ الشيخ الدجوي إلى هيئة كبار العلماء في دفاعها عن الإسلام وتفنيد مزاعم الشيخ علي عبد الرازق في كتابه "الإسلام وأصول الحكم" الذي زعم فيه أن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقةَ لها بالحكم، ولا دخلَ لها بالسياسة والتنفيذ في أمور الدنيا.

قالوا عنه

يقول الإمام البنا عن الشيخ الدجوي :"كنتُ أقرأ للشيخ يوسف الدجوي- رحمه الله- كثيرًا، وكان الرجل سمح الخلق، حلو الحديث، صافي الروح، وبحكم النشأة الصوفية كان بيني وبينه- رحمه الله- صلة روحية وعلمية تحملني على زيارته الفينة بعد الفينة، بمنزله بقصر الشوق أو بعطفة الدوبداري بحي الأزهر".

ويقول عنه الدكتور علي مبارك:" الأستاذ يوسف الدجوي عالم من هيئة كبار العلماء وهو ذو نفوذ كبير في الأزهر والمعاهد الدينية وأكثر العلماء الممتازين اليوم من تلاميذه، ويكاد يعدُّ الشيخ الدجوي خليفةً للغزالي في هذا العصر، ففيه تقريبًا كل خصائصه من القدرة والاستخلاص وقوة النفوذ وبغض الفلسفة والحذر من أن يتجاوز العقل ما له من حدود".

أثر الشيخ الدجوي في الأجيال اللاحقة

أثَّر الشيخ الدجوي في جيلٍ من الشباب الذين تربوا على فكره وتوجيهاته، من بينهم طلائع الحركة الوطنية في ثورة 1919م أمثال الشيخ محمود أبو العيون والشيخ مصطفى القاياتي وعبد الله عفيفي، وقد كان هؤلاء وغيرهم ثمرة من ثمار جمعية النهضة الإسلامية التي ألفها الشيخ الدجوي لمقاومة الإلحاد في شتى مظاهره، واختار لها ذوي الغيرة الدينية من رجالات مصر، فكانت الجمعية الدينية الثانية في مصر إذ سبقتها جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية وقد بذلت الجمعيتان جهدًا ذاتيًّا ملحًّا في مقاومة الجمعيات التبشيرية.

من جوانب عظمته

لقد كان هذا الشيخ بالرغم من علو مكانته رقيق العاطفة يتألم لألم المسلمين ويحرص على وحدة الصف الإسلامي في مواجهة تيارات الإلحاد القوية، وينسى خصوماته الفكرية مع غيره من العلماء، ولا يتحرج أن يأنس لكلام أحد تلامذته ويتعاون معه في خدمة الإسلام والمسلمين.

من المواقف التي تدلل على ذلك ما ذكره الإمام البنا في مذكراته عن لقائه بالشيخ الدجوي وإصراره على كسبه لرأيه، يقول رحمه الله: انتقلنا جميعًا إلى منزل الشيخ محمد سعد- وهو قريب من منزل الدجوي- رحمه الله- وتحريت أن يكون مجلسي بجوار الشيخ الدجوي مباشرةً لأستطيع الحديث فيما أريد، ودعا الشيخ محمد سعد بحلويات رمضان، فقدمت، وتقدم الشيخ ليأكل فدنوت منه، فلما شعر بي بجواره سأل: مَن هذا؟ فقلت: فلان.

فقال: أنت جئت معنا أيضًا؟ فقلت: نعم يا سيدي، وسوف لا أفارقكم إلا إذا انتهينا إلى أمر. فأخذ بيده مجموعة من النقل (قطع الحلوى) وناولنيها وقال: خُذْ وإن شاء الله نُفكِّر، فقلت: يا سبحان الله، يا سيدي، إن الأمر لا يحتمل تفكيرًا، ولكن يتطلب عملاً، ولو كانت رغبتي في هذا النقل وأمثاله لاستطعت أن أشتري بقرش وأظلُّ في منزلي ولا أتكلف مشقة زيارتكم.. يا سيدي، إن الإسلام يُحارب هذه الحرب العنيفة القاسية، ورجاله وحماته وأئمة المسلمين يقضون الأوقات غارقين في هذا النعيم.. أتظنون أن الله لا يحاسبكم على هذا الذي تصنعون؟ إن كنتم تعلمون للإسلام أئمة غيركم وحماة غيركم، فدلوني عليهم لأذهب إليهم، لعلي أجد عندهم ما ليس عندكم!!

وسادت لحظة صمت عجيبة، وفاضت عينا الشيخ- رحمه الله- بدمعٍ غزيرٍ بلل لحيته، وبكى بعض مَن حضر، وقطع الشيخ- رحمه الله- هذا الصمت بأن قال في حزن عميق وفي تأثر بالغ: "وماذا أصنع يا فلان؟" فقلت: يا سيدي، الأمر أيسر، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها.. لا أريد إلا أن تحصر أسماء مَن نتوسم فيهم الغيرة على الدين، من ذوي العلم والوجاهة والمنزلة، ليفكروا فيما يجب أن يعملوه.. يصدرون ولو مجلة أسبوعية أمام جرائد الإلحاد والإباحية، ويكتبون ردودًا وكتبًا على هذه الكتب، ويؤلفون جمعيات يأوي إليها الشباب، وينشطون حركة الوعظ والإرشاد.. وهكذا من هذه الأعمال. فقال: جميل. وأمر برفع (الصينية) بما عليها، وإحضار ورقة وقلم. وقال: اكتب.

وأخذنا نتذاكر الأسماء، فكتبنا فريقًا كبيرًا من العلماء الأجلاء، أذكر منهم: الشيخ رحمه الله، وفضيلة الأستاذ الشيخ محمد الخضر حسين، والشيخ عبد العزيز جاويش، والشيخ عبد الوهاب النجار، والشيخ محمد الخضري، والشيخ محمد أحمد إبراهيم، والشيخ عبد العزيز الخولي رحمهم الله.

وجاء اسم السيد رشيد رضا- رحمه الله- فقال الشيخ: اكتبوه اكتبوه؛ فإن الأمر ليس أمرًا فرعيًّا نختلف فيه، ولكنه أمر إسلام وكفر، والشيخ رشيد خير مَن يدافع بقلمه وعلمه ومجلته.. وكانت هذه شهادة طيبة من الشيخ للسيد رشيد- رحمهما الله- مع ما كان بينهما من خلافٍ في الرأي حول بعض الشئون، وكان من الوجهاء: أحمد باشا تيمور، ونسيم باشا، وأبو بكر يحيى باشا، ومتولي بك غنيم، وعبد العزيز بك محمد، وعبد الحميد بك سعيد- رحمهم الله جميعًا، وكثيرون غير هؤلاء. ثم قال الشيخ: وإذن؛ فعليك أن تمر على مَن تعرف، وأمرُّ على مَن أعرف، ونلتقي بعد أسبوع إنْ شاء الله".

وهكذا كان الشيخ يوسف الدجوي رحمه الله عظيمًا، لا تشغله التوافه والخلافات الشخصية عن عظائم الأمور، ولا تسخفنه المواقف عن تدبرها والانصياع للحق وإن كان صادرًا من أحد تلامذته.

مؤلفاته

قضى الشيخ يوسف الدجوي عمره في الدفاع عن الإسلام وبيان أوجه عظمته وسر خلوده، وترك وراءه ثروة علمية في شتى الأمور الإسلامية حوتها كتب ومقالات كثيرة؛ حيث كان له في كل يومٍ مجلس علم في الصباح وندوة دينية في المساء.

ولم يلتف إلى نفسه فيجمع مئات المقالات ومئات الفتاوى في كتبٍ يسهل تداولها بين الناس، ولكنه ترك الكثير من آثاره، ففي أنهار الصحف متفرقًا غير مجموع حتى نهض مجمع البحوث الإسلامية فجمع بعض بحوثه في مجلدين كبيرين تقرب صفحاتهما من ألف وستمائة صفحة.

من أهم كتاباته:

(رسائل السلام ورسل الإسلام)، وقد تُرجِّم إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت المشيخة الأزهرية منه عشرة آلاف نسخة.

- الجواب المنيف

- خلاصة علم الوضع

- تنبيه المؤمنين لمحاسن الدين

- المحاضرة الأزهرية

- سبيل السعادة

- كتاب في الرد على الإسلام وأصول الحكم

وفاته

تُوفي الشيخ يوسف الدجوي بعد حياة حافلة بالعلم والعطاء في شهر صفر 1365هـ يناير 1946م، وصلى عليه شيخ الجامع الأزهر ودفن في عزبة النخل.

---

* أهم المصادر:

- الزركلي "الأعلام"

- محمد رشيد رضا "مجلة المنار"

- حسن البنا "مـذكرات الدعوة والداعية"

- د. محمد رجب البيومي "النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين"

- زكي محمد مجاهد "الأعلام الشرقية في المائة الرابعة عشرة الهجرية"

https://www.ikhwanonline.net/article/101472